زوايا ... ولقطات

بقلم انور المعداوي

توفيق الحكيم ومفهوم الادب الشعبي

ليس هناك شيء يثيرني مثل ان أجد كاتباً معروفاً يترك مكانه في قفص الاتهام ليجلس في مكان القضاة... ثم يناقش القضية التي تدينه باسلوبه الخاص الذي تشد كل عبارة فيه على يد المتهم، وتحييه، حتى يفهم الجمهور القارىء انها التحية التي تسبق الحكم بالبراءة ... هكذا اثارني الاستاذ توفيق الحكيم وهو يتحدث عن مفهوم الادب الشعبي منذ اسابيع في احدى المجلات الادبية !

قيل له في اكثر من مناسبة إنك منذ « عودة الروح » لم تكتب ادباً يصور حيـــاة الشعب ، لم تكتب هذا الادب الذي يتحدث عن الوجود الخارجي لمشكلاته المادية والنفسية ، وعن الوجـــود الداخلي الذي ينطلق منه كل رد فعل لهذه المشكلات ... قيل له مثل هذا الكلام في مضمونه وان اختلف الشكل تبعاً لاختلاف الاساليب عند مختلف النقّاد . وانتظر الناس ان يرد توفيق الحكيم ... وطال انتظارهم حتى جاء هذا الرد « المثـــير » الذي خرج منـه المتهم وهو بريء ، لان القاضي الذي وضع حيثيات الحكم قد اخضع القوانين الادبية لمادة جديدة هذا نصها بعد الديباجة :

« فاذا كان لا بد من مستوى معين من الفكر والشكل، لا مناص من توفره حتى يمكن ان نسمي الادب أدباً، فان معنى هذا ان الادب ليس مطلق الحرية في ان يهبط الى كل مستوى . وهذا هو معنى الجوهر الثابت في الادب ، فهو شيء لا علاقة له بالموضوع الذي يعـالجه او الثوب الذي يرتديه. فقد يعالج الادب موضوعات شعبية ، وقد يصوّر احداثـا مما يقع في صميم البيئات السوقية من الشعب، وقد يحلل نفوساً ينتزعها من اعماق المجتمع الفقير، ولكن دقة التحليل وعمق التفكير وقوة التعبير تجعل من هذا الادب قمماً من الفن العظيم لا يرتفع الى الاحاطة بمراميها الا العقول المثقفة. فالادب اذن لا يصبح شعبياً لمجرد انه عالج مشكلات وموضوعات تمس الشعب، أو حلل نفوساً وصور شخوصاً من صميم المجتمع »!

لماذا ابتكر توفيق الحكيم هذا النص الجديد؟ لقد ابتكره لانه يريد ان يفهمك ان الشعب الذي يطالبه النقّاد بان يكتب له ، هذا الشعب في اكثر طبقاته يقبل على قصص الخيال اكثر مما يقبل على قصص الواقع ، لانه يريد ادب اللهو والتسلية ولا يريد ادب التحليل والدراسة ... يريد هذا ولا يريد ذاك لان طاقته العقلية ورصيده الثقافي لا يناسبها غير الادب البسيط الذي يقتصر على تصوير الحوادث او سرد المغامرات . هذا السواد الاعظم من الشعب كيف يكتب له توفيق الحكيم ؟ أتريدون ان ينقلب الاديب الى اداة لهو وتسلية ليصبح اديباً شعبياً كما يطالبه النقّاد ؟ ان اغلبية الشعب المطلقة لا تحس متعة القراءة الا في قصص ابي زيد الهلالي سلامة وعنترة وسيف ابن ذي يزن وامثالها من قصص المغامرات، هذا الفن القصصي الساذج الذي لا يستطيع الفن الحقيقي ان يهبط الى مستواه... وليس الشعب المصري وحده هو الذي ينفرد بهذه الظاهرة القرائية وإنما يشاركه فيها شعب كالشعب الفرنسي على سبيل المثال ، هناك حيث تجد الاكثرية الشعبية ايضاً من طبقات العمال وسائقي التاكسي والسيارات والحلاقين والبائعات في المحلات العامة ، تفضل قراءة قصص كاتب مثل دوماس وهو لا يعنى بغير تصوير المغامرة والمبارزة وفنون الخيال، تفضلها على قصص كاتب مثل بلزاك وهو خير من كتب الادب الواقعي المعبر عن حقيقة المجتمع... وعلى هـذا الاساس يصبح الكاتب الشعبي هو الذي يكتب للشعب في سواده الاعظم ويصبح بلزاك ودستويفسكي وحتى جوركي

كان الاستاذ انور المعداوي قد انقطع فترة تناهز السنة عن الكتابة والادب لأسباب صحية . ويسرّ « الآداب » ان يعود الاستاذ المعداوي الى قرائه الكثيرين في هذا البـــاب الشهري الذي يتناول فيه قضايا الادب العربي المعاصر بفكره الوقـــاد واسلوبه الحيّ

« الآداب »

أدباء غير شعبيين ، لانهم لم يكتبوا الادب إلا لهذه القلة المثقفة التي تطالع للمراجعة لا للمتعة وتقرأ للدراسة لا لمجرد اللهو والتسلية !

بهذه المادة الجديدة وبهذه الحيثيات أخرج توفيق الحكيم القاضي، توفيق الحكيم المتهم من قفص الاتهام.. وحرف واحد من حروف الجر الذي احدث كل هذه « اللخبطة » في صياغة الحيثيات وجعل الحكم الاخير في صالح الاستاذ توفيق إحرف جر واحد وضعه القاضي في مكان حرف جر آخر قد حول القضية من وضع الى وضع ونقلها من مضمون الى مضمون .. إننا لا نطالب توفيق الحكيم بان يكتب الادب « للشعب » وانما نطالبه بان يكتب الادب « عن الشعب » ولو انه فرّق بين « اللام » وبين « عن » لما احتجنا الى نص هذه المادة الجديدة الادبية وما تبعها من مذكرة تفسيرية !!

وتبعاً لهذا التصحيح يصبح المفهوم الحقيقي للاديب الشعبي شيئاً آخر غير هذا الذي حدده توفيق الحكيم ، يصبح وهو هذا الادب الذي تنصهر في بوتقته مشكلات الشعب عند كل طبقاته بلا تمييز ، يصبح وهو هذا الحديث الفني عن تركيبته النفسية والاجتماعية والتاريخية وأثر هذه التركيبة في توجيه سلوكه المادي إزاء الحياة ... ولا ضير مطلقاً من ان يكتب هذا الادب للطبقة المثقفة التي تفهم اتجاهه ومراميه ، لان مهمة الفن هي ان يضع كل مشكلات السواد الاعظم من الشعب بين يدي هذه الطبقة، ويفتح عيونها على الواقع، ويحدث في وجودها العقلي من الاثارة ما يجعلها تفكر في ايجاد شتى الحلول لكل هذه المشكلات ... وأرجو ألا يكون توفيق الحكيم قد نسي كلمته التي قالها ذات يوم ، وهي ان الفنان ليس مصلحاً اجتماعياً ولكنه خالق المصلح الاجتماعي!

أرجو هذا ، وأرجو بعد ذلك ان يقتنع بان دستويفسكي وجوركي وبلزاك كانوا ادباء شعبيين ، تبعاً لهذا المفهوم الاخير للادب الشعبي كما حددناه... لقد كان بلزاك في رأي احد السياسيين العالميين - وتوفيق الحكيم يعرف من هو - كان في رأيه ورأي الحق اعظم كتاب القصة في ادب العالم ، لماذا ؟ لان هذا السياسي العالمي قد بنى رأيه على أساس هذه الحقيقة : وهي انه لم يستطع ان يخرج من كتب التاريخ التي وضعت عن المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر بصورة كاملة عن هذا المجتمع ، كما خرج بهذه الصورة من قصص بلزاك .. ونحن لا نريد من توفيق الحكيم وغيره من كتاب القصة إلا ان يكتبوا عن الشعب دون ان نحمّل أحداً منهم ما لا يطيق ، أعني دون ان نطالبه بأن يتفوق بفنه على التاريخ !

موطن الازمة في المسرح المصري

ذات مساء، وفي باريس ، وضعت عصابة من اللصوص خطة محكمة للسطو على قصر مجهول ... قصر كان منظره الخارجي يؤكد للعيون النفّاذة التي لا تخطىء، ان هذا المخلوق المترف الذي اقتناه ليعيش فيه ، لا بد ان يكون واحداً من الاثرياء الحالمين . ولا بد ان يكون قد بعثر جزءاً كبيراً من احلامه في ردهات القصر وحجراته ، فغدت وهي مجموعة فاتنة من الجواهر واللوحات والتحف ... هذه الثروة التي يسيل لها لعاب كل لص حالم من لصوص باريس .

وفي لحظات، كانت كل الاشياء الثمينة الرائعة هنا وهناك قد تكدست امام الايدي النهمة والعيون الجائعة . ثم حانت اللحظة الاخيرة وهي لحظة الرحيل ، لولا شيء من الفضول .. هذه المكتبة الانيقة الضخمة قد لفتت انظارهم : أي مخلوق مترف هذا الذي يقرأ ؟ ومتى كان المترفون من أمثاله يجدون وقتاً للقراءة ؟! هذا الرجل المثير لا بد ان يعرفوه، على الاقل ليتندروا به ! وامتدت الايدي الى الرفوف ثم خرجت كل يد بكتاب.. وهنا حدث شيء لم يكن احد منهم يتوقعه، لان المفاجأة قد رسمت على الوجوه وداخل النظرات خطوطاً عميقة من الدهشة، والاضطراب، والخجل .. لقد كان الاسم الذي طالعهم متكرراً من وراء جلدة كل كتاب ، هو اسم ساشا جيتري !

وعندما عاد الكاتب الفرنسي اللامع الى بيته بعد ايام، خيل اليه ان اللصوص قد تركوا كل شيء في مكانه حين افتضح امرهم ...ولكن ورقة صغيرة وُضعت بعناية فوق مكتبه قد أطلعته على القصة كاملة ، وان كانت ملخصة في هذه الكلمات :

« عزيزنا ساشا جيتري

لقد أغرانا قصرك الفخم بسرقة محتوياته ، لولا مكتبتك الانيقة .. هذه الحارسة اللبقة التي اعترضت طريقنا في آخر لحظة، وأفهمتنا ان البيت بيتك ! اننا لا ندري كيف نعتذر اليك، لانه من المخجل حقاً ان الفنان الذي يسعدنا دائماً بفنه ، قد فكرنا يوماً دون علم بالواقع، في ان نسرق سعادته. ولهذا، فقد قررنا ان نعيد اليك سعادتك ، ويؤسفنا انه لم يكن لدينا

وقت لنعيد الى بيتك نظامه » !

تذكرت هذه القصة الطريفة وأحببت ان انقلها الى القراء، بعد ان قرأت في الايام الاخيرة كلاماً كثيراً حول ازمة المسرح المصري . ان الازمة في رأيي هي أزمة جمهور قبل ان تكون أزمة كتاب مسرحيين، وأنا أعني بالجمهور هنا هذه الفئة الواعية التي تفهم حقيقة المسرح وتقدر أثره الفعّال في حقل التربية الاجتماعية . لقد نجح المسرح الفرنسي واستطاع ان يؤدي رسالته ، بفضل جمهور يكفي ان يكون اللصوص فيه من ذلك الطراز الذي عرضته عليك في قصة ساشا جيتري ... واعتقد ان المثقفين المصريين لو قدر لهم ان يصلوا الى مستوى اللصوص الفرنسيين ، مستوى الفهم والتذوق لجمال المتعة الروحية التي يحققها المسرح كأداة ممتازة من أدوات التعبير الفني ، أعتقد ان شيئاً من هذا لو حدث لما بلغت الازمة هذا الحد الذي يهدد المسرح المصري بالفناء !

هذا الجمهور المثالي الذي اعنيه هو الذي يستطيع أن يوجه الحياة الفنية كما يريد ؛ يستطيع أن يصنع الكتاب المسرحيين وغير المسرحيين على القالب الذي يرضيه والاتجاه الذي يروقه ، لانه قادر بوعيه وثقافته على ان يرسم خط السير ويحدد معالم الطريق .. إن الادب صورة القارىء كما يقول سارتر ، أي انه ثمرة مزاجه الفني واتجاهه الفكري ومعتقداته الاجتماعية ، وعلى ضوء ميوله وحاجاته ومطالبه يختار الادب دوره وهو مؤمن بأن هذا الدور مطابق لتلك المطالب والحاجات والميول . وسارتر لم يقصد غير هذا القارىء الذى يعتبر النموذج الحقيقي للجمهور الذي نعنيه ، ولم يقصد غير هذا الادب الذي يحمل رسالة التعبير والتأثير ومنه الادب المسرحي الصالح للتمثيل .. لان هناك أدباً مسرحياً لا يصلح لغير القراءة او لان صلاحيته للقراءة هي الطابع الغالب عليه ، كما هو الحال في الادب المسرحي الذي يكتبه توفيق الحكيم !

وتوفيق الحكيم يعترف بهذه الحقيقة ، وهي أن مسرحياته مسرحيات ذهنية أعدها للقراءة أكثر مما أعدها للنظارة ، لان الجمهور هنا لم يتذوق المسرح التذوق المنشود بحيث يشجع الكاتب المسرحي على أن يكتب القصة التمثيلية .. وهو - أي توفيق الحكيم - معذور كل العذر إذا أرغم على هذا الاتجاه ، لان هذا الجمهور هو الذي حدد خط السير الفني لادبه المسرحي ووضعه داخل هذا الاطار . الجمهور إذن هو السبب الاول أو الموطن الاول لازمة المسرح التمثيلي في مصر ، لانه المسؤول الاول عن موقف كاتب مثل توفيق الحكيم ، وعن موقف كتاب آخرين كان من الممكن ان يخلقهم خلقاً لو توفر له الرصيد المطلوب من الامكانيات العقلية والذوقية !

لقد اطلعت على آراء ترجع أزمة المسرح إلى قلة عدد الكتاب المسرحيين وكذلك قلة العدد في دور التمثيل . وقد يكون هذا صحيحاً إذا نحن بحثنا المشكلة بعيداً عن المصدر الرئيسي للأزمة ونعني به الجمهور .. ولكننا إذا نظرنا إلى هذه المشكلة من الزاوية الاخرى التي اخترناها كأساس جوهري للأزمة ، لكان من التسلسل المنطقي الذي لا غبار عليه أن نرد قلة عدد الكتاب وقلة عدد المسارح ، إلى قلة عدد الجمهور الذي قلنا عنه انه يتذوق جمال المتعة الروحية للمسرح كأداة من أدوات التعبير الفني .ولا اشك في أنه اذا حدثت هذه المعجزة في يوم من الايام ، وهي أن يكثر عندنا هذا العدد من النماذج الجماهيرية الفاهمة المتذوقة لحقيقة المسرح ورسالته ؛ لا أشك في أنه إذا حدثت هذه المعجزة أن يكثر عندنا عدد المسارح وعدد الكتاب المسرحيين ، كنتيجة مباشرة لتلك المقدمة المنطقية إذا ما قدرنا أن النتائج الطبيعية تأتي دائماً مع ما يماثلها من مقدمات !

حديث في الادب مع طه حسين :

كل لقاء بيني وبين الدكتور طه حسين هو لقاء حول مائدة الادب .. والانسانية . إنه الاديب الوحيد في مصر الذي أشعر كلما لقيته أنني أتحدث إلى رجلين : أحدهما إنسان، والآخر أديب .. إن الانسان فيه يسألني دائماً عن اتجاهي في الحياة ، وكذلك الاديب فيه ... فهو يسألني دائماً عن اتجاهي في الادب . ومنذ ايام قريبة كنت مع هذين الرجلين، أستمع لتساؤل الرجل الثاني عن سر احتجابي عن الحياة الادبية كل هذه الفترة الطويلة .. وحين أطلعته على هذا السر وهو ان قضية الدفاع عن وجودي هي التي شغلتني عن قضايا الادب ، رأيت الرجل الاول يملأ المكان بانسانيته، ويملأ نفسي بمودته ، ويشعرني بان المثل العليا الفكرية ما يزال لها مكان في دنيا الناس .. وظهر الرجل الثاني مرة اخرى ليعبر لي عن سروره لانني قد عدت إلى القلم ، وليحدثني عن مقال كنت كتبته في إحدى الصحف عن مشكلة الفصحى والعامية .

- البقية في الصفحة ٦٦ -

زوايا ... ولقطات

— تتمة المنشور على الصفحة الثامنة —

ودار الحديث بينه وبيني حول هذه المشكلة ،وحول الذين أثاروها في الايام الاخيرة مطالبين بالغاء كل قيد من قيود اللغة..وقال طه حسين وعلامات الجد الصارم ترتسم على قسمات وجهه: لعلك قد قرأت مقالي عن المشكلة نفسها في صفحة الادب بجريدة « الجمهورية »..لقد تعرضت فيه لاهم أزمة قد تواجهنا إذا نحن لم نكتب الادب بالفصحى كأداة مفضلة من أدوات التعبير ، وهي نفس الازمة التي ناقشت نتائجها في مقالك ونحن إذن متفقان .. متفقان على أنه إذا كتب كل بلد عربي بلغته العامية ، فمعنى هذا ان المصريين سيحتاجون إلى من يترجم لهم الادب العراقي وأن العراقيين سيحتاجون إلى من يترجم لهم الادب المصري ، وقل مثل ذلك عن كل قطر من اقطـــار العروبة .. والنتيجة طبعاً هي أننا لن نجد هؤلاء المترجمين ، وستعيش الاقطار العربية في عزلة رهيبة قوامهاانعدام المشاركة الفكرية والوجدانية !

وقلت لطه حسين : إننا لو استطعنا أن نضع للغة الفصحى نحواً مبسطاً غير هذا النحو المعقد لقضينا عـــلى هذا الصراخ الهستيري الذي ينطلق من بعض الحناجر ، والذي بلغ فيه الهوس حد المطالبة بالغاء كل قيد من قيود تلك اللغة .. ألا يكفي أن يتزود كل كاتب برصيد من المعرفة النحوية المبسطة التي تتيح له ان يكتب فلا يخطيء وأن يقرأ فلا يخطيء ؟ إننا نريد أن نيسر الامور لهذا الفريق العاجز من الكتاب حتى لا يتهمنا بالدكتاتورية اللغوية ، وحتى لا يفهم أننا نضطهده ونحن نحاول أن نبصره بمخاطر الطريق .. ثم أليس باستطاعتنا أيضاً أن نخلص الادب من هذه الصناعة اللفظية البغيضة التي يلجأ اليها بعض الكتاب ، حتى يمكننا أن نصب كل الافكار بسهولة في أذهان الجماهير ؟

وقال طه حسين : مرة أخرى أوافقك .. ونحن لا ينقصنا إلا ان نتفرغ بعض الوقت ونبذل بعض الجهد لنتغلب على هذه الصعاب التي تواجه الآخرين . وأظنك توافقني على أنني أكتب الادب باسلوب سهل مبسط أعتقد أنه قريب جداً من أفهام القراء. إنني واحد من الذين يضيقون كل الضيق بالحذلقة والتقعر وتصيد الكلمات الغريبة من مجاهل القواميس ، ومن هنا نشأت تلك الخصومة الطويلة بيني وبين مصطفى صـــادق الرافعي رحمه الله .. لقد كنت أهاجم أدبه لهذا السبب وكان يرد على هذا الهجوم بسيل من الشتائم التي لا فن فيها ولا منطق ولا شيء من خفة الظل او عذوبة الروح ! ومع ذلـــك فقد استدعيت ابنته يوماً وأنا عميد لكلية الآداب وهي طالبة بهذه الكلية،وشملتها بعاطفة الابوة الصادقة وأفهمتها أنها تستطيع ان تجد في شخصي والدها الآخر ..

وقلت معقباً على كلمات الاديب الانسان: أما أن الرافعي قد شتمك كثيراً فهذا صحيح .. ولكن شتائمه لم تكن تخلو أحياناً من بعض الفن ومن بعض العذوبة ! وضحك طه حسين وهو يقول متسائلا : هذا الحكم الادبي يحتاج الى برهان ... متى كان الرافعي فناناً عذباً وهو يشتمني ؟ قلت وأنا أضحك أيضاً وكل الادباء الذين معنا يضحكون: يوم أن هاجمته الآنسة مي وهي تنقد كتاباً له فعقب على نقدها قائلا في رسالة خاصة نشرت يوماً في « الهلال » : يظهر أن الله يا مي قد ابتلانا بطه حسين مذكراً ومؤنثاً !! وأغرق الدكتور طه في الضحك وهو يقول : يؤسفني أنني لم أطلع قبل الآن على هذه العبارة اللطيفة .. ولكن ألا نحسب له في العمر كله عبارة واحدة ؟!

وسرى في المجلس جو جميل مرح أغرى طه حسين بأن يقص علينا بعض ذكرياته العذبة،وقال وهو يوجه اليّ الحديث مبتدئاً باحدى هذه الذكريات وكانت تتصل بالموضوع الرئيسي الذي دار من حوله النقاش : اطمئن .. اطمئن كما اطمأننت أنا بالامس البعيد يوم ان فوجئت بأستاذنا لطفي السيد وهو يدعو الى الكتابة بالعامية . لقد ذهبت اليه يومئذ لاستنكر واعاتب وأحتج ، لان هذه الدعوة شيء غير مألوف وبخاصة حين تصدر عن أمثاله من القادرين .. وعندما نقلت هذا المعنى الى لطفي السيد باللغة العامية التي نستخدمها عادة في حديثنـــا اليومي ، فوجئت مفاجأة اروع وأوقع من المفاجأة الاولى التي جعلتني أذهب اليه على غير ميعاد..لقد مضى لطفي السيد يجادلني حول وجهة نظره بلغة عربية مغرقة في الفصـــاحة مسرفة في الرصانة والوقار ! عندئذ بادرت بالاستئذان مودعاً وأنا اقول له : إن المشكلة التي بيني وبينك تعد الآن منتهية .. وادع بعد ذلك إلى العامية كما تشاء !!

وقلت بعد ان انحسرت موجة عالية من الضحك عن شفاه الحاضرين :ولقد أثبتت الايام أنك كنت صادقاً في اطمئنانك على مصير اللغة الفصحى وهي بين يدي لطفى السيد .. أما عن مصيرها اليوم وهي بين أيدي الدعاة الجدد الى العامية فليس بيننا وبينهم غير التجربة ، التجربة الفنية التي نرجو أن يقوموا بها يوماً في عمل أدبي يكتب بلغتهم ليحكم القراء !

القاهرة **انور المعداوي**